الأدب فى سير أعلامه :

ملـــتن ...

[القيثارة الخالدة التى غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ١ —

بين عهدين : عصر إليزابث وعصر البيوريتانه

فى اليوم التاسع من شهر ديسمبر سنة ١٦٠٨ ، فتح الوليد جون ملتن عينيه على نور الوجود ؛ وبمولده رزقت انجلترة أعظم شعرائها قاطبة حتى يومنا هذا ، إذا استثنينا «شكسبير» وحده ، واستقبلت الدنيا قرن الثلاثة الأفذاذ من شعراء الغرب الخالدين : وهم « هوميروس » و « دانتى » و « شكسبير » .

وكانت انجلترة حين مضى الطفل يستقبل حياته ، تستدبر فى حياتها الأدبية عهداً وتستقبل عهـداً . كانت إذا شبهنا ذينك العهدين بفصلين من فصول السنة ، بين أعقاب الربيع وطلائع الصيف ؛ فأما الربيع الدبر ، فكان العصر الأليزابيثى ، وأما الصيف المقبل ، فكان العصر البيوريتانى . ولقـد ألف مؤرخو الأدب الإنجليزى أن يسموا العصر الأول عصر « شكسبير » ، والعصر الثانى عصر « ملتن » .

وكان العصر الذى تستدبره انجلترة ويستدبره ذلك الوليد ، عصراً فذاً فى العصور الأدبية جميعاً ، إذا استعرضنا التاريخ الأدبى لهذه الدنيا قديمها وحديثها ...

كان حافلا كما يحفل الربيع بالضوء والنماء والزينة ، وكانت الحانه كألحان الربيع أنغاماً تملأ الأسماع من كل ركن وفى كل سهل ، وكانت نفوس أهله تستشعر روح العصر كأقوى ما تستشعر الأنفس روح الربيع ، ففى كل قلب تسرى الفرحة ، وفى كل جسم تدب القوة ، وفى كل ذهن يقوم إحساس قوى غامر بجمال الحياة ، والأمل فى الحياة ، والرغبة فى الاستزادة من لذائذ الحياة ...

وإنك لتجد لهذا العصر روحاً مميزة شاعت فى حياة الناس ، وسيطرت على تلك الحياة ، وتتلخص هذه الروح فيما يفهم من كلمتين هما النهضة والحرية : فأما الأولى ، فقوامها إحياء علوم الأقدمين من اليونان والرومان ، وإحياء فنونهم وآدابهم ؛ وأما الثانية ، وهى ثمرة للأولى ، فقوامها الانطلاق من ليل العصور الوسطى ، والانعتاق من قيودها إلى حيث يفيض النور ، ويتسع مجال التفنن والابتداع .

أقبل الناس على دراسة مخلفات اليونان والرومان فى حماسة ولذة ، وآمن الناس إيماناً قوياً بأن لهم أن يستمتعوا بالحياة أعظم استمتاع وأوسعه ، فيغنموا ما فى الدنيا من مسرات وزينة ؛ فما منحوا الحياة لكى يقضوها متزمتين منها برمين بها ؛ وأيقن الناس أن من أهم ما يجب أن تتصف به حياتهم الجديدة هو بث روح الجمال فى النفوس والعمل على السمو بها حتى تستشعر الجمال وتبحث عن الجمال وتأنس به لا كتمة من متع الدنيا فحسب بل كنشـوة روحية لا غنى للروح عنهـا إن هى أرادت التحليق والسمو . وتمسك الناس بفكرة لن يحيدوا عنها ، وذلك أن الله وهبهم العقل لينظروا ويتدبروا غير مقيدين بما سلف من آراء مهما بلغ من قيمتها ، ولذلك كرهوا القيود كرهاً شديداً وأحبوا الحرية حباً شديداً ، وظهر أثر هذا الحب فيما ابتدعوا من شعر ونثر ، لا فى مادة ذلك الشعر وذلك النثر فحسب ، ولكن فى الطريقة والصورة بل وفى الألفاظ المستعملة كذلك .

وملأ قلوب الناس التطلع إلى توسيع أفق الحياة العقليـة في كل ناحية من نواحيها ، وقد جاءهم ذلك مما تم لهم فعلا من توسيع أفق الحياة المادية بعد كشف الدنيا الجديدة ، نتيجة لمغامرة المغامرين منهم وراء البحار في الغرب وفي أسواق آسيا في الشرق؛ وأقبل الناس على كل طريف يتقصونه من الأنباء عن العالم الجديد وعن الشرق ، فأثر ذلك في اتجـــاه عقولهم وفيما أنتجته تلك العقول ، تلمس ذلك في الكثير من قصصهم ومسرحياتهم وما تعج به من مواقف مثيرة وحوادث تستهوى الألباب وأفانين من مبتدعات الخيال تبث المرح في النفوس وتحملهـا على الإعجاب والاستزادة وتيسر لها سبل الابتكار والخلق .

وطاف بالناس شعور بمجد وطنهم وعظمته وتفوقه على غيره ، وبخاصة بعد أن حطم أسطولهم الأرمادا أسطول أسبانيا الهائل ؛ كما ملأت أفئدتهم وطنيـة صادقة يلتقي عندها ويتفق عليهـا المتنازعون في الدين من الكاثوليك والبيوريتانز ؛ وإلى جانب ذلك كله أنجب العصر من أفذاذ الرجال في كل ميدان من ميادين الحياة ما يصعب الوقوع على أمثالهم مجتمعين على هـذا النحو في غيره من العصور ، فلم تخل ناحية من النواحي من أماثل نابهين، ففي الأدب والفن والفلسـفة وفي الجندية والبحرية والسياسة والحاشية عظماء يزدان بهم العصر وتعظم بهم الحياة .

هذا هو العصر الذي كانت تستدبره انجلترة ويستدبره ملتن ، أو هذا هو الربيع الراحل ؛ ولن تعدم العين في أخريات الربيع أن تقع على زهرات شتيتة هنا أو هناك في جنته التي تنذرها أنفاس الصيف بالفناء القريب ؛ ولن تعدم الأذن كذلك أن تسمع في ذلك الفردوس الذاهب نغمات حائرة بين الحياة والموت . وكذلك كان الحال في أخريات عهد إليزابث ، فكانت بعض ثمرات العقول مثل كتابات بيكون لا تزال تقدم إلى المجتمع ، كما كانت بعض ألحان العصر كأصـداء الربيع الذاهب لا تزال توقع على أوتار شكسبير إذ لم تسكت تلك الأوتار إلا بموت صاحبها عام ١٦١٦ أي بعد ثمانية أعوام من مولد ملتن .

وأقبل الصيف في إثر الربيع فجاء منذراً بالقيظ تلفح أنفاسه لفحاً يبدو قاسياً وتشـمر النفوس في مقدمه بالصرامة والقسوة والعبوس حتى كان ينسيها ذلك طلاقة الربيع ومفاتن الربيع .

تمـكنت البيوريتانية من المجتمع وتسلطت على الناس ؛ وكان ملتن يستقبل شبابه بينما كان ذلك المذهب يستقبل فتوته وسلطانه . واعتنق ملتن ذلك المذهب وتحمس له ، ولـكن كانت قد استقرت في حسه وخياله تلك المواكب التي انطوت ، وتلك النغمات التي احتبست ، فراح كالطائر المتفرد المتخلف يغني في هجير الصيف ألحان الربيع !

وما هذه البيوريتانية التي سوف يعتنقها الشاعر في شبابه والتي سوف تؤثر تأثيراً قوياً في مزاجه وفنه وسلوكه وموقفه من حياة عصره ؟ أجل ، ما هذا الصيف الصارم العابس الذي أعقب ذلك الربيع الرضي الطلق ؟

* * *

جدير بنا أن نعرف أولا من هم البيوريتانز ولماذا أطلق عليهم هذا الإسم قبل أن نتعرض لمذهبهم ونظرتهم إلى مسائل الحياة وأثر تلك النظرة في العصر الذي تم لهم فيه السيطرة والجاه .

أطلقت هذه الـكلمة أول ما أطلقت على فريق من رجال الـكنيسة في انجلترة في عهد الملـكة اليزابث ، فقد أرادت هذه الملـكة أن توحـد طقوس العبادة في كنائس مملـكتها جميعاً ، وكان أبوها الملك هنرى الثامن قد فصل الـكنيسة في انجلترة عن كنيسة روما عام ١٥٢٩ بسبب ماشجر بينه وبين البابا من خلاف يتصل بقضية زواجه ، وجعل الملك نفسه الرئيس الأعلى للـكنيسة بدلا من البابا ؛ فأصدرت الملـكة عام ١٥٥٩ المرسوم الذي يوحد العبادات ويحرم من صورها ما لم يرد ذكره فيه ؛ فـكان رجال الدين حيال هذا المرسوم فريقين ، فريقا رضي عنه ، وفريقا ود لو أنه كان أكثر تطرفا في الابتعاد عن روما فأبطل ما لا يزال من صور العبادات يأتي على شاكلة ما يتبع في الـكنيسة البابوية وما يعد في نظرهم من البدع والخرافات . وهذا الفريق الثاني هم الذين أطلق عليهم إسم البيوريتانز أو الطهرون ، وذلك لأنهم كانوا يريدون تطهير العبادات من آثار كنيسة روما . ولم يمض على

صدور ذلك المرسوم إلا نحو خمسة أعوام حتى كان هذا الإسم شائعاً على الألسن يطلقه الناس على هذه الفئة المغالية فى القضاء على كل ما له صلة بروما .

ولكن ماهى إلا أعوام ثمانية أخرى حتى خرج بعض الناس ممن كرهوا هؤلاء المغالين بهذا اللفظ عن مدلوله البسيط فصاروا يطلقونه على كل من يرمونهم بالمروق من الدين ليلحقوا وصمة الفسوق بالبيوريتانز إذ يسلكونهم والفاسقين والمنافقين فى سلك واحد ، حتى لقد أوشك أن ينسى مدلول الكلمة كما نشأت فى وضعها الأول وأصبح البيوريتانز فى نظر خصومهم ومن يجهلون أغراضهم هم الضالين الملحدين .

وتزايد استعمال الكلمة فى مدلولها الجديد الظالم حتى أصبحت البيوريتانيسة فى أذهان بعض الناس مرادفة للإلحاد والنفاق والضلال وما كانت حين نشأت إلا الرغبة فى الاصلاح والتطهر من البدع والتملص من كل ما لا يعد من جوهر الدين .

وزاد بعض خصوم المذهب بعداً بالكلمة عن معناها الأول فنسوا ما فى ذلك المعنى من عنصر دينى طيباً كان ذلك العنصر أو خبيثاً ، وصارت عندهم كلمة سباب عامة يعبرون بها عن كل معيب ويطلقونها على كل من يريدون الطعن فيهم من الناس كما يطلق لفظ الشيطان مثلا على كل شرير أو معتد أو عابث .

ولما شاعت البيوريتانية فى المجتمع ونمت كمذهب لا يقتصر على النظرة الدينية بل يتناول كذلك السياسة والخلق والفكر والفن دأب خصوم هذا المذهب فى محاربته بالطعن فى أشياعه، وحسبهم أن يطلقوا على الرجل منهم ذلك اللفظ الذى بعد عن مدلوله كل البعد والذى أصبح مسبة عامة ليشفوا ما فى صدورهم من غل . نجد مثلا واضحا لذلك فى العبارة الآتية التى وصفت بها كاتبة فى أوائل القرن الثامن عشر ما كان يلاقى البيوريتانز من خصومهم فى عهد الملك جيمس الأول الذى خلف إليزابث على العرش عام ١٦٠٣ أى بعد نحو أربعين عاما من مبدأ ظهور البيوريتانية قال: « إذا أظهر الرجل حزنه على ما ينال شرف المملكة وما يصب من العذاب على رؤوس الرعية فهو بيوريتان ؛ وإذا تمسك أحد أفاضل الريف بقوانين الأرض وحرص على المطالبة بحسن الإدارة وانتظام الحكم فهو بيوريتان ؛ وجميع من لا يأبهون بمطالب رجال الحاشية الممتدة أيديهم والقساوسة المعتدين على الحقوق وذوى الرذيلة من النبلاء فهم كذلك بيوريتانز ! ومن لا يطيقون سماع الأيمان الحانثة والحوار الذى يكنفه الأسفاف ، والتعريض الماجن والاستهزاء بكلام الله فهم جميعا فى عداد البيوريتانز ؛ ومتى كانوا بيوريتانز فهم أعداء الملك وحكومته وهم متمردون متبجحون منافقون وهم الطاعون فى هيكل المملكة »

على أن هؤلاء البيوريتانز على الرغم من مطاعن خصومهم يتكاثر عددهم ويتغلغل فى النفوس مذهبهم منذ أواخر القرن السادس عشر، ولن يزالوا فى تكاثرهم وتحمسهم حتى تم لهم السيطرة السياسية على البلاد عقب الحرب الأهلية التى انتهت بإعدام الملك شارل الأول ، وكان مرد الانتصار على الملك وحزبه إلى عبقرية حربية ظهرت فى شخص أليفر كرمويل أحد أشياع ذلك المذهب .

يتبع

القيف

شـــعاب قلب

دروس نفسانية تحليلية

صور من صميم الحياة

تحايل قصصى على ذهن القارىء

عرض مشوق مرغب

بقـــلم

حبيب الزحلاوى

يطلب من إدارة الرسالة الثمن ١٥ عدا البريد